



لا يسع العرب الذين يحكمهم الشيخ والأمير، والملك والرئيس، والقائد والزعيم، والتقيب والقسيس، أبداً الرأي الآخر، ولا يحتملون وجهة النظر الأخرى، أياً كانت طبيعتها ومضمونها، سواء كانت نصاً أم نقداً، تصويباً أم توجيهأً، تحذيراً أم تنبيهاً، طالما أنها تبدو معارضة وتظهر مخالفة، وأياً كان من يحملها أو يطرحها، أو الشكل الذي يتقدمون بها ويعرضون من خلاله آراءهم، ويعبرون عن وجهة نظرهم في الحكم أو في الأداء، وفي السلوك أو في الاجتهاد، سواء نصحوا في السر وداخل البيت وحافظوا على الخصوصية، أم فضحوا السلطة ونشروا آراءهم في وسائل الإعلام، وعبروا عنها بحريةٍ وصراحة.

السلطات العربية بإطارها الواسع لا الضيق، وبإطارها الشمولي لا المحدود، التي تشمل أنظمة الحكم وقيادة التنظيمات ومسؤولي الهيئات والتجمعات والنقابات والاتحادات، تضيق بالمعارضة صدروها، وتحتشرج بهم أرواحها، وتکاد تخنق بهم نفوسها، فهي لا تقوى على التعايش معهم، أو الاجتماع بهم والتفاهم معهم، ولا ترضى أن تشارکهم السلطة، أو تقاسمهم المسؤولية، أو المساعدة معهم في حمل الأعباء الوطنية، وترى أنهم ينافسونها ولا يكملونها، ويهددونها ولا ينصحونها، ويخدعونها ولا يصدقونها، ويسعون لمصالحهم الشخصية والحزبية والفئوية لا من أجل الصالح الوطني العام، ولا بهم الأمن والاستقرار، بقدر ما تعنيهم السلطة والقرار ولو كان ثمنها الفوضى والاضطراب، والدمار والخراب.

السلطات العربية تعادي المعارضة الوطنية وتكرهها، وتهتم بها في ولائها وتشكك في انتمائها، فتصنفها تارةً بالمعارضة العميلة، أو الجاهلة السفيهة، أو الضالة المنحرفة، أو المأجورة الأجنبية، التي تعمل لحساب غيرها، وتتنفذ أهداف عدوها، ولا يعنيها أو سلامتها مواطنوها، بل إن همها الأساس السلطة والكرسي، والمنافع والامتيازات، لذا فهي اعتماداً على هذا التقدير الخاطئ الظالم، الدائم والمتشابه، تعلن الحرب عليهم، وتهدد وجودهم، وتحارب جمعاتهم، وتنكل بقياداتهم، وتضيق على مناصريهم، وتعتقل مؤيديهم، وتصنفهم بنقص العقل وقلة الوعي، وتهتم بهم بالقصیر والتفریط، وتجیز لنفسها محاربتهم بكل الوسائل والسبل، المشروعة والممنوعة، والمباحة والمحرمة.

السلطات العربية ذات العقل الواحد والتفكير المشترك، التي تحمل العصا بيد والسوط بيدها الأخرى، لا تجد سبيلاً للتخلص من المعارضة إلا بقتل صاحبها أو تغييبه في السجون والمعتقلات، أو نفيه وراء البحار والمحيطات، أو شطبه سياسياً وتشويهه واتهامه، واستدراجه وتوريطه، أو تلوثه والعبث بسمعته، والإضرار ب الماضي وبمستقبله، وهدم ما بناه وتدمير ما عمره، قبل أن تقدمه إلى الشعب بصورته الجديدة، لمحاكمته ومحاسبته، وإقصائه والابتعاد عنه، كونه نموذجاً لا يحتذى، ومثالاً لا يقلد، وإنما مصيره ينتظر من أراد أن يقلده أو أن يتبعه، أو أن يؤيده ويأتي بمثله.

هي لا تعرف التكامل ولا تبادر الأدوار، ولا تقبل بالتنوع المغني ولا بالتنوع المميز، الذي يمنحك القوة وتحسن الوطن، ولا تستفيد من المعارضة ولا توظفها كعدوها في الحفاظ على حقوقها والتمسك بثوابتها، ولا ترى نفسها قوية في وجودهم، ولا عزيزة عليهم، لذا فهي تعجل في الخلاص منهم والقضاء عليهم، وهي تظن أنها ستكون بدونهم أقوى وأصلب، وأقدر وأفضل، وما عرفت أنها بسياساتها الخرقاء تقضي على سندها، وتكسر ظهرها، وتتخلى عن معينها، وتفرح عدوها وتتصبح أمامه ضعيفة، وفي مواجهتها وحيدة.

هذه هي سيرتنا نحن - العرب - منذ زمنٍ طويل، لم نبدل ولم نغير، فقد تعودنا أن الصورة لا تتحمل أكثر من وجه، والكرسي لا يتسع لأكثر من شخص، ومكبر الصوت لا يستجيب إلا لصوت القائد الأوحد والزعيم الملهم، أما السوط فإنه يجلد أكثر من جسد، والقيد يغلي أكثر من يد، ويكتف أكثر من لسان، والسجان يسوق الكثيرون، والسجون تتسع للآلاف، وجوف الأرض يتسع لأكثر منهم، وكلهم ينادي هل من مزيد؟!

ودوماً هناك قصة وحکایة، تبرر الجريمة وتتنسب الحدث، للصدفة التي سببتها سيارةً عابرة، فصدمت وقتلت، أو للحوادث العابرة، وحكایات القتل الخطأ عن غير عمد، برصاص صديق أو أثناء القيام بمهمة، وما هي إلا جرائم قتلٍ حقيقة للتخلص من المعارضين، وتصفية المخالفين.

أما الموالاة والأنصار، والأتباع والمقلون الذين لا يحسنون نصاً ولا يتقنون نقداً، ولا يبرعون فيما ينفع، إلا ما يهم مصالحهم، ويطبل بقاءهم، ويديم مناصبهم، ويحفظ وظائفهم، إذ لا يقدمون غير المدح، ولا يتقنون غير الإشادة، ويدعون أنهم الأعلم بما ينفع، والأدرى بما يضر، وأنهم لا يقترون في مهمة، ولا يتأخرون عن واجب، ولا يسكنون عن حق، ولا يترددون في صد الظلم ورد المظالم، ولكنهم إن هم علموا بصاحب رأي يخالفهم، وبصوتٍ يعارضهم، أو يشوش عليهم، فإنهم يوشون به، وينبغون عنه، ويطلبون من أسود الأرض وصقور السماء أن تنال منه ولا ترحم، وأن تؤدبه بقسوة ولا تتردد، وتعلم به قصداً غيره، ليكون له درساً وعبرة، وقصةً على مدى الأيام وحکایة، لا ينساها أمثاله، ولا يفكر بتكرار موافقه أجياله ومن سيأتي بعدهم من سمع بحكایتهم وعرف خاتمتهم.

لا استثناء لدولة، ولا اقتصار على جماعة، ولا تخلُّ من هذه الجريمة منظمة، فهي صفةٌ لازمة للأنظمة والأحزاب والقوى، وملاصقة للحكام والأجهزة والمؤسسات الأمنية، فهي تعرف أنها لا تكون بغیرها، ولا تبقى في أماكنها إن هي لم تؤمن بها وتعمل بمبرمجها، فهي سلاحها الأمضى الذي به تبطش وتحكم، وعصاها التي بها تهدد وعليها تستند وتتكئ، تهش بها حيناً وتضرب بها أحياناً، فمن استجابة وخضع، فقد ترضى عنه وتقبل به معها أو شريكاً، ومن أصر وعاند، وعارض واستكبار، فإنهم يعلمونه أن باطن الأرض خيرٌ له من ظاهرها، وغالباً يقتنع ويرضى، ويسكن جوف الأرض صامتاً ساكتاً لا حرراك فيه ولا أثر من بعده لأفكاره، ولا صدى تحفظه الأيام لأقواله، ذاك هو حالنا نحن - العرب -، حال الأسى والنكد، والبؤس والمرض والسلق.

